

تأثير المعري في أدبي الأدب المعاصر.. انقطاع أدم استمرار

د. سهيل الملاذي

إن الحديث عن التأثير والتأثير، في الأعمال الإبداعية الإنسانية، ومدى خلود هذه الأعمال واستمرارها، بحيث تدخل في نسيج الأعمال التالية، يبدو حديثاً صعباً؛ إذ لا يمكن ملاحظة الحدود التي تجعل عملاً ما استمراراً أو تقليداً أو محاكاة لعمل سابق، أو تبقى الأمر في إطار التأثير المحدود والمثابرة فحسب.

إن القضية تبدو معقدة نوعاً ما، حين نجري مقارنة بين رسالة الغفران للمعري، والكوميديا الإلهية لدانتي، لنصل إلى معرفة مدى تأثير دانتي بالمعري، ونجيب على التساؤل: فيما إذا كان ثمة اتصال أو انقطاع بينهما، أو مع الأعمال التالية، إلى وقتنا المعاصر.

إنني أميل إلى الاعتقاد بأنه ليس ثمة محاكاة أو تقليد بين هذه الأعمال، وأن الأمر لا يعدو كونه تأثيراً أو تشابهاً في الشكل. مع اختلاف واضح في المضمون والأفكار المطروحة، وحتى في طريقة تناول والمنهج المتبع.

وقديماً قال عنتره: هل غادر الشعراء من مترد؟

رسالة الغفران: كتبها أبو العلاء المعري (363-449هـ)، في نهاية الربع الأول من القرن الخامس الهجري، ويفصل بينها وبين كوميديا دانتي حوالي أربعة قرون.

هي رد على رسالة بعث بها ابن القارح إليه، وفيها نجد أبا العلاء يطوف بصاحبه في أرجاء العالم الآخر، في رحلة خيالية ممتعة، حيث ذاقاً معاً ألواناً من السعادة والنعيم، ليعوض بذلك ما كابده من ألم ومعاناة في حياته الدنيا.

أما هذه المعاناة، فهي معروفة، أدت إلى اعتزاله الناس والحياة العامة.

فجنة أبي العلاء هي جنة السجين المكبوت والمحروم والضرير. هي جنة حفلت بمجالس الأدباء، وجعلت للأدب الجيد مكانة، تجعله وسيلة للشفاعة والغفران.

وجحيم أبي العلاء هو جحيم الأعمى، هو جحيم يغلب عليه الطابع الإنساني، ويبقى على بشرية

التدريث العربي د. سهيل الملاذلي ***

المعذبين وأهوائهم، ويوجز في تصوير آلامهم، هو جسيم فيه مشاهد أدبية حافلة -كما في الجنة- يشفق فيه على المعذبين منهم، ويجعل للأدب مكانة تشفع لصاحبه.

ولم يكن العصر أفضل حالاً من حال المعري. وهو بدوره ترك بصماته على الرسالة.

أدباء عصر المعري كانوا مولعين بالتراسل، لإبراز براعتهم الأدبية واللغوية.

وهذا ما فعله المعري في اختياره أسلوب الرسالة، وفي تناوله مسائل لغوية وأدبية، ليدلّل بذلك على تمكنه منها، وعلى رجاحة في الرأي، ونضج في الفكر، وسلامة في المنهج، بما في ذلك من استطراد واغراب وألغاز.

كما يدل على ذلك تناوله للقضايا النقدية والشعرية والعروض والموسيقا والنحو والصرف والرواية.

والحياة الأدبية عموماً في عصر المعري - رغم ظهور الكثير من أعلام الأدب واللغة والشعر فيها - كانت تعاني من ضعف وتراجع.

وقد عكس الأدب صورة الأوضاع السياسية المتردية، من ضعف الدولة، وتنازع النفوذ فيها، والتقلبات والأخطار والمشاكل المتفاقمة، والحروب الداخلية والخارجية.

ولم تكن الحياة الاجتماعية تختلف كثيراً، فقد كان الفساد متفشياً، والقيم منهارة، ترافقتها حياة دينية تنسج بالفوضى والتنازع والتشيع والتفرقة.

لقد أوحى هذه الأوضاع للمعري، أن يجعل للشعراء حظوظاً متفاوتة من النعيم أو العذاب، فصب نقمته على بعضهم، وأظّل الآخرين برحمته، وخص آل علي وآل البيت بحقوق في الشفاعة، ليست لغيرهم، وأوحى إليه أيضاً أن يتهم على المتكلمين والإمامية والصوفية والباطنية وغيرهم، ممن كان العامة مشغولين بدعاوهم.

هذه السخرية من بعض المعتقدات الدينية، والحملة على النفاق والرياء، والحزن على غفلة الناس وحمقهم، دفعت البعض إلى اتهام المعري بالزندقة، متجاهلين أنه رسم صورة الآخرة، كما رسمها القرآن والحديث وكتب التفسير، وما تكون لها في الأذهان، من خلال الكتب والشعر والأساطير التي تناقلها الرواة.

في الغفران ثلاثة محاور رئيسية:

1-الحياة الآخرة: الجنة -النار.

2- الحديث عن الزندقة.

3-المسائل اللغوية والأدبية.

وإذا ما عقدنا مقارنة بين غفران المعري، وكوميديا دانتي (ت 720هـ) الإلهية، التي تلتها بعد حوالي (400) عام، لوجدنا كثيراً من أوجه التشابه، التي لا تصل على الإطلاق إلى مستوى التقليد

أو التماثل.

أما النقاد الذين تناولوا هذين العاملين من زاوية التماثل والمحاكاة، فقد كانوا يسقطون بعض الأوجه التي رأوا فيها تشابهاً، على العاملين معاً، واشتطوا في تفسير هذه الأوجه، التي قد يكون التشابه فيها قد أتى مصادفة، أو أنه كان انعكاساً لبعض الأوضاع العامة والظروف الخاصة المتشابهة.

وعموماً، فإن الذاكرة الإنسانية، والحضارات المتفاعلة، تحتفظ دوماً برصيد لا بد أن يظهر في إنتاج الأدباء، ويبدو على أنه تشابه أو تماثل، ذلك أن ثقافة ما لا يمكن أن تولد من فراغ.

لقد ورد العملان ومؤلفاهما عند القدماء والمحدثين: أشار بعضهم إلى مكانة الغفران في فنون النثر العربي، وأطلقوا عليها تسميات شتى، وصنفوها في فنون الملحمة أو المقامات أو القصص. ولكن المؤكد أنها لا تنتمي إلا إلى فن الرسالة التي تجري مجرى الكتب المصنفة، وإن كانت تحتوي على طرف من تلك الفنون الأدبية.

أما الكوميديا الإلهية، فهي لا تشبه الغفران في نوعها الأدبي، لأنها بناء شعري بحت، يتضمن شعراً خالصاً مصوغاً في مائة نشيد.

وإذا كان المعري في الغفران يصطحب صديقه الشاعر ابن القارح في رحلة إلى العالم الآخر، فإن دانتي يترك للشاعر فرجيل أن يقوده في ذلك العالم، في رحلة استغرقت سبعة أيام، والمغزى هو أن الأعمى يقود المبصرين في العاملين معاً.

صورة الآخرة لدى المعري صورة إسلامية، تحتوي على الجنة والنار. أما عند دانتي فهي صورة مسيحية، تحتوي على ثلاثة أقسام: الجحيم والفردوس، يتوسطهما المطهر.

ودانتي في هذا التقسيم يرمز بالجحيم إلى الخطيئة والعذاب والشباب، وبالمطهر إلى التوبة والتطهر، وبالفردوس إلى الكهولة والطهارة والحرية والخلاص والنور الإلهي.

وكما هو شأن المعري، حين يجعل رحلته في العالم الآخر، تغلب عليها السعادة والمتعة والنعيم، تعويضاً عن الألم والحرمان الذي عاناه في الحياة الأولى، فإن دانتي ينهي رحلته بالسعادة الإلهية، تعويضاً عن معاناته السياسية.

إنه يهدف إلى إصلاح البشرية، ويلغي فوارق الزمان والمكان، بحيث تختلط الخرافة بالواقع، والخيال بالتاريخ.

لقد صور كل ما يعمل في داخل الإنسان من عواطف ومشاعر وانفعالات وأحاسيس، ومن أفكار متناقضة (من حب وكره، وكذب وصدق، ونفاق وصفاء...).

لقد أبدع دانتي في رسم الطبيعة، كما أبدع في تصوير الشخصيات (الأمراء والفقراء، والشياطين والملائكة..)، فكانه يعكس التناقض الموجود في الحياة الدنيا.

التراث العربي

د. سهيل الملاذلي

وإذا كان من تشابه بين العاملين، ففعل السبب في أن كلا منهما كان مرآة لعصره، وانعكاساً لواقعه.

إن الغفران صورة العالم الإسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريين، بكل ما فيهما من أحداث وتناقضات، كما أن الكوميديا الإلهية كانت نتاجاً للعصور الوسيطة في أوروبا، وإرهاصاً لعصر النهضة فيها، حيث انتقلت الحضارة حينئذ من عصر الله إلى عصر الإنسان.

لقد تأثرت بأخلاقيات القرون الوسطى، لكنها خرجت على الكثير من تقاليدها وقيمها الدينية، فوضعت البابا -وهو الشخصية المقدسة- في الجحيم، لأنه هدد مصالح فلورنسة، وأزدت الشخصيات الدينية الإسلامية أيضاً. فكانها أرادت أن تنثور على الديانات عموماً، لتبشر بعصر الإنسان الخلاق.

وهنا لا بد أن نلاحظ أن الكوميديا الإلهية، التي تبدو في ظاهرها رحلة إلى العالم الآخر، هي في حقيقتها رحلة إلى الحاضر والواقع، لأنها تغوص في أعماق الحياة والإنسان، وإن كان طابعها السياسي واضحاً، إذ إن صاحبها شخصية سياسية، شاركت في الحياة العامة، وعانت من الاضطهاد السياسي. بخلاف الإطار الأدبي الذي غلف رسالة المعري، وهو الشخصية الأدبية الكبرى في التراث العربي.

هل يمكن أن نقول: إن دانتلي كان يقلد المعري، لمجرد هذه التشابهات التي جاءت عفوية، أو لأنه قام برحلة خيالية إلى العالم الآخر؟ كما فعل المعري؟.

هنا لا بد أن نذكر أن صورة العالم الآخر قد ظهرت مراراً قبل المعري وبعده، إلى وقتنا الحاضر، في التراث الفرعوني والإغريقي والفارسي والهندي، في الأدبيات المسيحية، كما في الأدبيات الإسلامية. وما قصة المعراج وسير المتصوفة وابن عربي إلا دليل على ذلك.

1- بداية نذكر رسالة الملائكة للمعري نفسه، وهي كثيرة الشبه بالغفران من نواح عديدة:

-في طبيعتها الأدبية واللغوية، بالرغم من أنها تتناول مسائل صرفية.

-اختيار العالم الآخر مسرحاً لها.

-أسلوب الحوار والمناقشات، وعرض الثروة اللغوية، وما فيها استطراد واستقصاء وجمع، ومن عبارات ومواقف.

-لقد ألفت في الزمن الذي ألفت فيه الغفران، وقد تكون سبقتها بقليل، فهي نواة لها، أو تأخرت قليلاً فهي صورة مصغرة عنها.

2- رسالة التوابع والزوابع، لأبي عامر بن شهيد الأندلسي القرطبي (382-426هـ).

لقد ظهرت أيضاً في صدر القرن الخامس الهجري، ووصلتنا فصول منها عن طريق كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لأبي الحسن علي بن بسام (ت 542هـ).

كتب ابن شهيد هذه الرسالة لأبي بكر بن حزم، وتفنن في وصف رحلة خيالية، مع زابغة له من

الجن، التقى به أول مرة حين كان يعاني الشعر في رثاء حبيب له مات. وفي هذا إشارة واضحة إلى تأثر ابن شهيد بالتراث العربي الذي جعل للشعراء وادياً يسكنه الجان، اسمه وادي عيقر. حل ابن شهيد وزابعته في بلاد الجان، والتقى بعدد من الكتاب والشعراء، فصار يستشدهم وينشدهم.

تعددت الرحلات، وشهدا فيها مجالس الجن، وهم يتذكرون ويتناظرون. وكان أبو عامر يدلي فيها بدلوه، وكان رأيهُ دائماً هو الصائب.

رغم أن أبا عامر اختار في رسالته أن تكون رحلته إلى عالم الجن، لا إلى عالم الملائكة، فإن د. أحمد ضيف يراه مقلداً للمعري، ويرى رسالته تشبه الغفران، من حيث أسلوبها الأدبي، مستدلاً بأن ابن شهيد قد أدرك عصر المعري، الذي كانت قد ذاعت شهرته، وبأن المغاربة في هذا العصر كانوا يقلدون المشاركة.

أما د. زكي مبارك (النثر الفني في القرن الرابع) فيخالف د. ضيف، حين يرى أن المعري هو الذي حاكى ابن شهيد، معتمداً على ما قيل عن أن تأليف رسالة التوابع والزوابع سبق تأليف الغفران بعشرين عاماً.

ويستند الباحثان إلى أدلة متشابهة:

1- وجود الرجلين في عصر واحد.

2- شيوع التقليد بين الشرق والغرب.

3- تشابه الرسالتين في الموضوع والأسلوب ومسرح الحوادث.

ترجح بنت الشاطي -ونحن معها- الرأي الثاني، لأن ابن شهيد في العام الذي كتبت فيه الغفران، كان على فراش الموت، لا يقوى على كتابة شيء.

تقول بنت الشاطي (الغفران لأبي العلاء- دار المعارف بمصر - 1954):

"من المسلم به أن بينهما وجه تشابه، لكنها ليست خاصة بهما، وإنما هي من الظواهر الأدبية التي يمكن أن تلتبس عند غيرهما من أدباء العصر، أو في الآداب على وجه العموم".

كلاهما صاغ أحكامه الأدبية في أسلوب شائق على طريقة الحوار، وقام برحلة في عالم الخيال، أنطق فيها الجن والحيوان، لكن هذا نلقاه في الأقاصيص والأسمار والأساطير وأخيلة الشعراء، وكلاهما أراد إثبات تفوقه في الحفظ والإنشاء، وبراعته في الكلام والصنعة، وأن يبهز صاحبه، ولكن هذا يمكن أن يقال عن كل ما كتب الرجلان أو غيرهما من صناعات الكلام.

إن من قالوا بالتشابه، لمحوا نظرة عابرة، ولو تمنعوا لأدركوا أنهم أمام أثريين متميزين لأدبيين مختلفين، من إقليمين متباعدين. ولو فرضنا أن ثمة تشابهاً في الأسلوب والهدف، فهو لا يقوم وحده دليلاً على التشابه، إذا اختلف جوهر الموضوع:

-رسالة الغفران بطلها ابن القارح، أما أبو العلاء فيتوارى عن المسرح.
أما التوابع فبطلها ابن شهيد نفسه، وهو بطل كل الأحداث والمواقف والحوارات.
-الغفران تصور أحلام المعري، وتعرض آراءه ومذاهبه النقدية، أما التوابع فهو ديوان لشعر ابن شهيد.

-أبو العلاء حافظ راوية ناقد، وابن شهيد شاعر مفاخر مبارز، يهزم كل الشعراء.
وإذا انتقلنا خطوة أخرى، لننتلمس التشابه في الآداب العالمية، نجد أن موضوع التأثير والتشابه قد بقي غائباً عن أذهان النقاد فترة طويلة من الزمن، إلى أن جاء عام 1886، حين نشرت مجلة المقتطف سلسلة مقالات بعنوان: "شذور الإبريز في نوابغ العرب والإنكليز".
بدأت بمقالة عن العلاقة بين السلطان صلاح الدين والملك ريتشارد قلب الأسد، تلتها مقالة بعنوان: "أبو العلاء وجون ملتن الإنكليزي"، ثم مقالة تقارن بين ابن خلدون المغربي وهربرت سبنسر الإنكليزي.

ومن الواضح أن هذه المقالات ظهرت في مجلة مصرية، في وقت احتل فيه الإنكليز مصر بعد ثورة أحمد عرابي عام 1882.

إن كاتب المقالات أراد أن يخلق علاقة أدبية وهمية، وتشابهاً لا وجود له بين شخصيات عربية وأخرى إنكليزية، ليهيئ بذلك الأذهان لقبول وجود الإنكليز، والتعايش مع الاحتلال.

في مقالة "أبو العلاء وجون ملتن" أشار الكاتب إلى ملامح متشابهة بين أبي العلاء -دون أن يذكر اسم رسالة الغفران- وبين الفردوس المفقود لملتن، ومثل باتفاق خواطر الشاعرين في ميدان الشعر (وهي معان عامة تتوارد على خواطر معظم الشعراء) دون أن يقصد الموازنة بينهما، أو يشير إلى مسألة التأثير والتأثير.

وبعد ثمانية أعوام، أي سنة 1904، ظهرت ترجمة البستاني لإلياذة هوميروس وفي المقدمة التي كتبها البستاني، طور الفكرة من التشابه إلى نوع من الموازنة، حين قال فيها:

"إن من أحسن ملاحم المولدين، ملحمة نثرية جمع فيها صاحبها شتى المعاني، وأوغل في التصور، حتى سبق دانتى الشاعر الإيطالي وملتن الإنكليزي إلى بعض تخيلاتهما، ألا وهي رسالة الغفران لأبي العلاء المعري".

وما هي إلا أعوام قليلة أخرى، حتى تحولت القضية إلى دعوى تأثر ملتن بالمعري ومحاكاته، فقد أضاف جرجي زيدان عنصر الاقتباس، حين قال في (تاريخ الآداب العربية):

"فتخيل رجلاً صعد إلى السماء، ووصف ما شاهده هناك، كما فعل دانتى شاعر الطليان في الرواية الإلهية، وما فعله ملتن الإنكليزي في ضياع الفردوس، لكن أبا العلاء سبقهما ببضعة قرون".

ثم ظهر في مدريد عام 1919 كتاب بالإسبانية هو "الإسلام والكوميديا الإلهية"، من تأليف

ميجويل أسين بلاسيوس، وطبع بالإنكليزية في لندن عام 1926. وفيه يرد المؤلف الكوميديا الإلهية إلى عناصر إسلامية، منها رسالة الغفران.

منذ هذا الوقت اختفى اسم ملتن أو كاد يختفي من ميدان المقارنة، وعاد اسم دانتي ليشغل المكان الأول في البحث المقارن، حتى أن محمد كرد علي لم يتردد في تقديمه لكتاب "جحيم دانتي" (ترجمة أمين شعر - القدس 1938) عن القول:

"إن أعمى المعرفة كان معلماً لنا بغة إيطاليا في الشعر والخيال".

وقال الميمني (رسالة الملائكة - في ذيل كتاب أبي العلاء وما إليه - ط السلفية 1345هـ):

"وما ملتن الإنجليزي صاحب الفردوس الغابر إلا من الأتباع.. ومثله شاعر الطليان دانتي في كتابه... بيد أنا أهل المشرق لم نحفظ بمآثر أسلافنا، ولم نؤمنها من بوائق الضياع".

أما بنت الشاطي، التي قامت بدراسة مستفيضة عن المعري وتأثيره في الآداب الأخرى، فلم تقبل نظرية بلاسيوس حول تأثر دانتي بالإسلام.

وقد وضحت رأيها بالنقاط التالية (الغفران لأبي العلاء المعري - دار المعارف بمصر - 1954):

- إن هناك قدراً من التأثير بالأفكار الإسلامية التي دخلت أوروبا عن طريقين: صقلية وإسبانية، (وهي قصة المعراج، وآراء الإسلام في الحياة الآخرة).

- إن كلاً من المعري ودانتي إنسان وشاعر، لكن المعري اعتزل الحياة ومباهجها، في حين انغمس دانتي في المجتمع والحب والحياة العامة والسياسية.

ففي سن الخامسة والثلاثين، كان من السنة الذين يحكمون فلورنسة. كما أنه ذاق مرارة الهزيمة والنفي.

- إن العاملين يلتقيان عند فكرة الرحلة الخيالية إلى العالم الآخر، وهي فكرة إنسانية عامة، لا توحى بالتأثير والتأثير.

- لم يكن دانتي بحاجة إلى محاكاة الغفران، فبين يديه - وهو يكتب رحلته - إلياذة هوميروس، وفيها أحاديث عن الحياة الأخرى. كذلك كانت قصيدة الإنيادا لفرجيل، وفيها مشاهد للجحيم. كما أن دانتي اتخذ فرجيل صاحبها شاعراً أثيراً لديه، ودليلاً له في رحلته، نظراً لخبرته السابقة.

- لكل منهما طريقته الخاصة وطابعه، ولكل من العاملين صفاته المختلفة:

الكوميديا قصيدة باركها رجال الدين المسيحي، والغفران وصاحبها متهمان.

الكوميديا تجد الحب، والغفران إشاعر يكفر بالحب. دانتي ناقد سياسي، والمعري ناقد لغوي. الكوميديا جد وعاطفة إنسانية، والغفران شهوات مصورة بسخرية ومرارة، وفيها تهكم من معتقدات الناس.

حين ننقل إلى أدبنا المعاصر، يفاجئنا أحد الأدباء السوريين بعمل أدبي متميز، يعيدنا إلى أجواء المعري.

ففي عام 1981 ظهر كتاب "رسالة الراح والأرواح" لبشير فنصة، في (360) صفحة، (من منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق).

منذ البداية أظهر بشير فنصة تأثره برسالة الغفران، من خلال أمرين اثنين: الأول أنه اختار (رسالة الراح والأرواح) عنواناً لعمله الأدبي، والثاني أنه قام برحلة إلى العالم الآخر، فأوحى إلينا بأن ثمة تشابهاً بين العاملين.

ثم إنه تحدث صراحة عن أبي العلاء في أماكن كثيرة من كتابه، بل لقد جعل طيف أبي العلاء يرافقه في مراحل رحلته، وأبدى إعجابه به، وبفلسفته الأدبية والفكرية، وبآثاره وكتبه.

يسوق في الجزء الأول من الكتاب، على لسان أمين اليسراوي قوله:

"رسالة الشياطين، إنها الرسالة الوحيدة لصاحبنا المعري، التي لم يعثر المستشرقون بعد على نصها الكامل، لقد عثروا على رسالة الغفران، ورسالة الهناء.. أما رسالة الشياطين فلم يوفقوا بالعثور عليها"

ويذكر أن فيلسوف الفريكة أمين الريحاني سبق وكتب في الثلاثينيات رسالة إلى المستشرق الروسي كراتشكوفسكي، يستفسر بها عن هذه الرسالة، التي يعتبرها على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للتحقيقات العلمية في فلسفة وأدب المعري.

وفي هذا الصدد يقول: "لقد كتب إليّ أحد كبار المستشرقين أن أوافيه بما عندي من آثار باقية لها".

ويعترف بأنه يعيش بقية عمره مع صاحبه المعري، وبأنه يشعر باتحاد روحي عميق وإياه.

وبصراحة أكثر يقول أمين اليسراوي عن (رسالة الراح والأرواح)، التي كان يستكمل كتابتها:

سيكون لهذه الرسالة -بعد أن أنتهي من رسم خطوطها العريضة- شأن وأي شأن، على ما أظن. في يوم من الأيام ستكون نوعاً من تقمص الأفكار، وامتداداً لرسالة الغفران.

وبالرغم من كل ما ذكره المؤلف عن التشابه بين العاملين، فإن قراءة الكتاب لا توصلنا إلى درجة الاعتقاد بالتماثل أو المحاكاة، فثمة أوجه اختلاف كثيرة، تجعل لكل منهما طريقته ومنهجه وطبيعته وأسلوبه، سواء في الشكل أو المضمون، كما أن لكل كاتب شخصيته المتميزة، وأفكاره الخاصة.

لقد اكتفى بأن أهدى كتابه إلى شاعر معاصر يحبه هو "شيخ الشعراء" الشاعر القروي، دون أن يجعل منه رفيق الرحلة إلى العالم الآخر، بل دون أن يشير إليه كثيراً في متن الكتاب.

وفي حين يصطحب المعري ابن القارح، ويقود فرجيل دانتي في رحلتيهما، لم يجد المؤلف حاجة لأن يصحبه المعري بشخصه، بل بفكره وفلسفته وأدبه.

ففي الملكوت الأعلى، وأخرى بالذكرى والفكرة، أو العقل الكوني الشامل الذي لا يفنى، بل يتحول ويتطور".

"إن الفكر الديني عند الإنسان والأسطورة نفسها مترافقان، وفي تطور دائم مع تقدم الإنسان نفسه في مضمار المعرفة، إلا أن أعظم حدث في التاريخ الطبيعي للإنسان، هو مولد الضمير في العقل البشري"، وما الضمير غير الحب.

لبن قصة الخير والشر، والنور والظلام، إنما هي أسطورة من صنع الإنسان نفسه. وما يزال الأمر نسبياً، فما تراه خيراً قد يراه غيرك شراً.

"إن التجربة التاريخية والبحوث النفسية المستجدة، حتى الأخلاقية، دلت كلها على أنه من الممكن تحويل مجرى العدوانية ومسلك الصراع إلى سبل أخرى، مع تقدم الإنسان وتطوره ونضج مداركه واتساع وعيه وتفتح عقله.

فليس شرطاً أن يقتل الإنسان أخاه الإنسان لتستمر الحياة، وينتصر الخير على الشر. إن تجربة تحويل الصراع الإنساني إلى صراع ضد الطبيعة، أو إلى صراع رياضي. أو تنافس علمي أو فضائي أو ما شابه ذلك من أوجه الصراعات قد أثبتت جدواها في الأزمان الأخيرة".

"إن المسألة لم تعد مسألة فلسفة واعتبارات أخلاقية بحتة. المسألة غدت قضية مجتمع صحي معافى، وآخر مريض سقيم".

"لم تعد القضية قضية مجرد صراخ طبقات، أو صراع دول غنية وفقيرة وحسب، بل دخلت شعوب هذا الكوكب في عصر جديد، عصر الذرة والفضاء، فإما أن تدمر عن بكرة أبيها، وتلتهمها الحرائق النووية، أو أن تكافح وتصارع مجتمعة الحرب والجريمة والجنون والانتحار... لقد أصبح عالمنا واحداً شئنا أم أبينا".

لم يكن اليسراوي رجل سياسة وفكر وصحافة وأدب فحسب، بل اقتحمت حياته الماضية قصة حب لا تماثلها قصة حب أخرى.. وقد ظلت ذكراها باقية في ذهنه حتى موته، وهي التي أوحى إليه رسالة الراح والأرواح.

في باريس عرف فتاة دمشقية اسمها وردة أو (روز)، عند أحد أصدقائه الطلبة، الذي كان يدرس الرسم في معهد الفنون الجميلة.

لقد استطاع الهرب آنئذ إلى باريس، عاصمة الدولة التي تحكم بلده بالحديد والنار.. ذلك أن باريس ظلت في نظره -برغم ذلك- مدينة الحرية والنور، فشعبها طالما ثار على الظلم والطغيان، ووقف عماله وأحراره وكبار مثقفيه مع لفيف من نوابه إلى جانب قضيتنا العادلة.

كانت وردة تدرس في معهد اللغات الشرقية، أبوها ضابط فرنسي ألزاسي، وأمها عربية من دمشق.

توطدت بينهما علاقات صداقة ومودة، تحولت إلى حب فارتباط مقدس.

لقد كانا متوافقين في الآراء والتوجهات السياسية والفكرية، وفي نظرتهما إلى الإنسان والحياة والمجتمع.

حدثها عن امرأة عرفها من قبل، في باريس أيضاً، وهام بها لأنها تشبه الموناليزا. تزوجها وأغدق عليها وجوده وخياله وكل ما يملك، لكنه أدرك بعد وقت قصير أنه كان يجري خلف وهم، إذ رأى نفسه أمام امرأة عادية، شبه مبتذلة في تصرفاتها، متبرجة، تخدعها المظاهر البراقة، فارغة العقل، وهكذا تم الطلاق، وغادرها إلى الأبد.

وحدثته ورده بدورها، عن تجربة عاطفية فاشلة مشابهة لتجربته. اتفقا على الزواج بلا عقد، وأثمر ارتباطهما مولودة سميها سعدى.

فجأة، نشبت الحرب العالمية الثانية، واختفت ورده مع طفلتها، ودخل هتلر باريس، فنكل بالأحرار والاشتراكيين والشيوعيين، وكان لا بد لأمين اليسراوي أن يرحل عن باريس، ويعود إلى وطنه.

ظل مصير ورده وطفلتها مجهولاً، إلى أن جاءه نبأ من باريس، حمله صديق قديم، يفيد بأن رجال (الغستابو) أعدموا خمسين رهينة، بينهم صديق العرب، نائب باريس، والصحفي اليساري المعروف (غبرئيل بيرى). ولم يستبعد الصديق أن تكون ورده في عداد من أعدموا.

انتهت الحرب، ولم يوفق اليسراوي في العثور على أثر لورده أو ابنته سعدى. عكف على كتابة الدراسات عن أوضاع الوطن العربي، وساهم في بعض الانقلابات والأحداث السياسية، وتعرض للمتابع ومحاولات اغتيال كثيرة.

حين سنم، وخاب أمه في وحدة العرب وتضامنهم ونهضتهم، انزوى "هارباً من السياسة والسياسيين، والعساكر والانقلابيين والانتهازيين والوصوليين، المتاجرين بالشعارات والأديان والمذاهب والأيدولوجيات، من مختلف الطوائف والجماعات"، منصرفاً إلى كتابة "رسالة الراح والأرواح".

أما ابنته، فيظهر له فيما بعد أنها ما زالت على قيد الحياة، وأنها تعرضت لمتابع كثيرة، منذ إعدام أمها، وأنها جذت في البحث عنه، إلى أن عثرت على مكانه أخيراً.

وما إن تلقى هذا النبأ السعيد، وأن ابنته قادمة لرؤيته، حتى قتلته الفرحة، قبل أن تكتحل عيناه برويتها، تاركاً لها ولصديقه رسالته التي انتهت توأ من كتابتها، وهي مضمون الجزء الثاني من الكتاب.

إن ذكرى ورده هو الذي أوحى لليسراوي بكتابه "رسالة الراح والأرواح"، رغم علمه كما يقول - بأن ما كتبه بهذا الشأن "لا يتعدى أن يكون أضغاث أحلام، كشاعر يرى طيف من أحب يحوم بين النجوم".

فرحلة اليسراوي إذن، هي رحلة إلى عالم آخر، إلى نجوم جديدة وكواكب بعيدة، حيث ارتحلت

وردة، يبحث فيها عن طيف طالما داعب وجدان أعلام الشعر الصوفي المتسامي وقيمهم، دون أن يعثر على أثر لمحبووبته.

كما أن طيف المعري كان ملازماً له حتى النهاية، ففي الرسالة إشارات مطولة إلى أخبار أبي العلاء المعري وعصره، وإلى رسالتيه الغفران والملائكة، وإلى ما ورد فيهما من قضايا أدبية ونحوية وصرفية.

وفي الرسالة أيضاً، لا نجد حدوداً زمانية ولا مكانية للرحلة، بحيث تدور الأحداث والحوارات بين القدماء والمحدثين عرباً وأجانب، في جلسات واحدة، تتناول الأخبار القديمة والحديثة معاً، وتنتقل الرسالة بنا من مكان إلى آخر دون ضوابط.

في الرسالة أحاديث متعددة عن الأدباء والشعراء والمفكرين والسياسيين والشخصيات التاريخية والمتصوفين والمغنين والمغنيات، وعن الأحداث الكبرى كالحروب، ولم ينس المرور على حادثة دنشواي والفرنسيين، وعلى أخبار فارس وخراسان والهند وغيرها..

أخبار الشعراء متناثرة في الرسالة: عمر الخيام، أبو نواس، ديك الجن الحمصي، كثير عزة، الزهاوي، الرصافي، أحمد شوقي، عمر أبو ريشة، شعراء المهجر.

أما رجال الفكر والأدب والفلسفة فللمؤلف جولات معهم: ابن رشد، ابن خلدون، ماركس، طه حسين، الريحاني، دارون، فرلين، فولتير، جان جاك روسو، بودلير، ادغار ألن بو، أرنست همنغواي.

كذلك كانت له جولات أخرى مع شخصيات تاريخية: نابليون، هتلر موسوليني، كرومر، الخديوي إسماعيل، غاندي، جواهر لال نهرو.

وفي الرسالة محطات للمغنين والمغنيات وأخبارهم ومجالسهم: ابن سريج، أشعب، سكينه بنت الحسين، موزارت، فيروز، أم كلثوم.

وكان المؤلف كان يتوقع أن يُتهم بالرغبة في عرض معلوماته وثقافته على الناس - كما اتهم النقاد المعري وغيره - فأعد دفاعه سلفاً، بقوله:

"لقد عمدت إلى الإشارة إشارة عابرة إلى بعض ما خطر لي من معلومات، أصبحت معروفة سافرة، وأتيت على ذكر نتف من مساجلات ومناقشات، أثارت ضجة في الدار الساخرة، في مختلف الأندية والمحافل العلمية والدينية والصحف والإذاعات المتنافرة، وكان أخشى ما أخشاه أن يحسب من يطلع على هذه الرسالة في يوم من الأيام، أنني قد رمت من ورائها استعراض معارفي ومعلوماتي، والتباهي بشيء من علمي وأدبي".

ولا ينسى المؤلف أيضاً أن يثير جانباً آخر يختلف فيه عن المعري، حين ذكر أنه لم ينافق، أو يضع قلمه في خدمة المرائين والمتاجرين، إذ يقول:

"وإذا انتحل صاحبي المعري في بعض الظروف والأحيان الأعذار - وهو الزاهد بالجاه والمال

والسلطان في تبرير ما أملى في رسالته، التي سماها (رسالة الهناء)، وحشاها بالنفاق والرياء، على غير عادته في نقد كل ما يخالف حكم العقل والضمير والوجدان، فقد يكون عذره مقبولاً في عصر عصره، أما أنا فلا أجد عذراً، ولن أنتحل سبباً لأضع قلمي في خدمة المتاجرين بالأوطان والأديان".

ولا ينكر المؤلف أنه نهج منهج أبي العلاء في تناول موضوع السيرورة الإنسانية، بصرف النظر عن تشاؤمه، مع مراعاة ما فرضه الفارق الزمني من تطور وتحول على الفكر الإنساني. وهو يوضح هذه الناحية بقوله:

"وإذا نحوت نحو فيلسوف المعرة ورهين المحبس، وتقمصت فكرة الثاقب في معالجة موضوع من أخطر المواضيع، ألا وهو السيرورة الإنسانية عبر تاريخها الطويل نحو الأفضل والأعقل، بصرف النظر عما فرضه عليه تشاؤمه الكوني من رؤية مظلمة، وبتقدير الفارق الزمني بين عصره وعصري، ونشأته ونشأتي، ففي ألف من السنين ويزيد، طرأت على العالم تطورات وتحولات كبيرة، وظهرت مبتكرات ومخترعات كثيرة، أثرت جميعها بطبيعة الحال في مجرى تاريخ الفكر الإنساني، وأحدثت من التغيرات في أساليب العمل ومنحى التفكير، ما لم يكن -ولا ريب- يخطر على بال أبي العلاء وسواه، من أساطين عصره وأعلامه الأدباء، ولكن النهج الذي سلكه المعري ظل حتى اليوم نهجاً سليماً، يقوم على أساس من حكم العقل والضمير، وعدم القبول برأي أو نظرية أو فرضية، إلا بعد التمهيد والتدقيق والاستقراء والتجربة إلى أمد طويل.

لذلك نهجت نهجه، ونهج من سبقه وجاء بعده من أحرار الفكر من الكتاب، ولا ينكر المؤلف - رغم ما ذكره عن الفارق الزمني، الذي أضاف كثيراً من المعطيات، منذ عصر المعري - أن المعري قد سبق عصره بمراحل وأشواط، مما جعل أدبه خالداً.

(هذه الرسالة إذن، هي نسج لحياتنا المعاصرة، وحصيلة صراع عنيف، ونضال مرير، لإحياء فكر عربي جديد، بعيد عن الأوهام والأساطير والشعارات المزيفة والأضاليل. ولم يلجأ كاتبها إلى أسلوب القدامى في التلميح والتعبير من بعيد أو قريب، إلى أحداث مشابهة في عصرنا الحديث، إلا تقية من قوى البغي والظلام، مما فرض عليه أن يتبع الأسلوب الساخر، والإشارات الخفية.

إنها تعبر عن روح المجتمع السائد، وفكر الإنسان العربي الحر، جمع فيها بين الغابر والحاضر، في رؤية صادقة واضحة، تخلص فيها عن الأسلوب القديم، فتغاضي عن التكلف في السجع والنثر والشعر، وعن الصور الجامدة التي قدمها لنا المؤرخون القدامى، الخالية من التفاعلات الروحية والفكرية والشعورية مع الأحداث السالفة).

وأخيراً، يقول المؤلف:

"إن ما جاء في هذه الرسالة، لا هو بالمقامة ولا المقالة، إنما هو حلم من أحلام اليقظة، راودني بعد معاناة فظة، واتحاد روحي عميق بصاحبي المعري، ذلك الفيلسوف العبقري الأملعي، فنهجت نهجه في رسالة الغفران ورسالة الملائكة والشياطين، علني أغلب الخير في النفوس على

الشر، وأسقط النفع في الضر، فيتلاشى ما يكنه الإنسان لأخيه الإنسان، من ترمت وحقد وعدوان، ويتحول الصراع بين البشرية إلى صراع ضد الطبيعة البدائية".

ينهي المؤلف رسالته الناقصة بالقول:

لتنظّل رسالتي غير كاملة، ومن يدري فقد يأتي من بعدي من يسد ما فيها من نواقص وثغرات..
كما اقتفيت أنا أثر أبي العلاء في الغفران.

أما أنت يا وردتي الحمراء، يا أمنية تافت إليها الأنفس والأرواح، سواء كنت في الأرض أم في السماء، أبعث إليك بهمة وداع.

أمين

إننا لا نجد أثراً لدانتي أو فرجيل في رسالة الراح والأرواح، في حين نجد المعري حاضراً بفكره وقيمه وروحه في ثناياها.

وقد رأينا المؤلف فيما سبق، يلح على تأثره بالمعري، وبرسالة الغفران منهجاً ومادة وأسلوباً وفكراً، رغم أننا نرى خلاف ذلك، فيما يتعلق بالمنهج والأسلوب والمادة والغاية وطبيعة العمل الأدبي، وقضايا شكلية أخرى.

ولا يعدو التشابه أن يكون -كما هو بين الغفران والكوميديا الإلهية- تشابهاً في كون العاملين يتحدثان عن رحلة إلى العالم الآخر، وأن كلا منهما تعبّر عن عصر مؤلفه، وعرض لمعلوماته وثقافته.

ولعل المؤلف أراد أن يبقى الصلة مستمرة، بين عصر المعري وعصره الراهن، وأن يبقى الطريق مفتوحاً مستقبلاً، أمام الأعمال القادمة، لأن تتأثر بالتراث الأدبي، وتتابع المسيرة الإنسانية، ولهذا بقيت رسالة الراح والأرواح ناقصة، على أمل أن يكملها عمل قادم.

وفي رأينا أن كل ما قيل ويقال عن التماثل والتقليد والمحاكاة، ليس صحيحاً، وهو لا يعدو أن يكون تشابهاً، أو تأثراً من قبيل الاغتراف من معين الحضارات الإنسانية التي تتفاعل فيما بينها.

إن هذه الأعمال أشبه بكواكب مختلفة الأشكال والألوان، تدور جميعها في فلك واحد.

